عن اللغة والمستقبل

"وجهـــة نظـــر"

د. محمود الربيعي
عضو مجمع اللغة العربية في القاهرة

حقيقة اليوم كانت حلما بالأمس، ونأمل أن يكون حلم اليوم حقيقة في الغد.

والحديث عن المستقبل من شأنه أن ينشط فينا الخيال، والخيال غير الوهم، والتخيل غير التوهم. الخيال يمكّننا من قياس المستقبل على الحاضر، كما أن الواقع يمكننا من قياس الحاضر على الماضي، وشواهد الحاضر وقرائنه هي وسائلنا لتشيط خيالنا الذي يؤلف لنا صورة (تقريبية) للمستقبل. تلك حالة لا علاقة لها بالوهم او التوهم اللذين هما من عالم أحلام اليقظة، وضروب الأماني. والفرض العلمي هو ابن الخيال الرصين، وهو منهج في التفكير لا يخيب، وعلينا استخدامه في تصور ما يمكن أن يكون عليه الحال في كل أمر مستقبلي، وبخاصة ما يتصل بالعناصر الجوهرية في مشروع النهضة الحضارية. وغنى عن البيان أن اللغة تقع في قلب هذا المشروع، وبوسعي – دون مبالغة – أن أضيف: "إن لم تكن هي المشروع ذاته"! ترى ما الذي نتصوره – ومن ثَم نريده ونسعى إلى تحقيقه – من الحال الذي ستكون عليه اللغة العربية في وطننا؟

"مصر تجدد نفسها" – عبارة قالها أحمد شوقي منذ ما يقارب من قرن من الزمان، وهي عبارة صالحة لأن نعيد استخدامها كلما جددت مصر نفسها. لقد انتفضت في يناير من سنة 2011، مزيحة عن كاهلها حكما ظالماً، غاشما، متخلفا أصابها بالركود عشرات السنين، وحوَّلها من دولة مدنية إلى عشوائيات (مادية ومعنوية)، وأصاب لغتها في مقتل فأصبحت هشيماً من رطان أعجمي، ورطان آخر أشد خطراً على مستقبلها من الأعجمي، وتخلت عن

اللغة عن أن تكون لسان الأمة، وأداة تصحيح الفكر، ووعاء الابتكار العلمي والإبداع الأدبي، فغط الوطن نتيجة ذلك في سبات عميق، وطفت أنصاف المواهب محدثة "ضجة ثقافية" (بكلامهم)، ومدخلة المثقفين (وما هم بمثقفين) في الحظيرة الثقافية (وما كانت قط بثقافة!). وكان لا بد أن ينتفض الوطن، وقد انتفض. وهو من صحوته الحادة لابد أنه ينظر– دَهِشاً– إلى جسده بالقروح، ويفتش عن مجموعة الأدواء التي أقعدته عن النهوض، ويبحث عن استعادة هويته التي تؤهله ليتبوأ مجدَّداً مكانته اللائقة به في العالم.

ومن القسوة أن نلوم الوطن الآن على التفريط، أو أن نحجب مساعدتنا عنه في إطفاء الحرائق التي تشب في نواحيه نتيجة الجرائم الفاحشة التي أفقدت أمنه، وتكاد تفقده طعامه وشرابه وسمعته. لكن من الأمانة أن نقدم النصيحة، ونقول بأن توفير الأمن لا يمكن أن يكون بطلب الحماية من الخارج، وإنما يجب أن يتحقق ذلك بالعمل الوطني الجماعي الذي يكون بقيادة المؤهلين من أبناء الوطن، القادرين على وضع الخطط العلمية الملائمة للنهضة، وتوقيتات تنفيذها.

ومادمنا قد ذكرنا "التأهيل" فلندخل مباشرة إلى التعليم.

ونقول إن التعليم أصيب في مصر في مقتل، وإن ذلك بدأ منذ نصف قرن من الزمان، لكنه لم يصبح داء وبيلاً، وعاراً قومياً، إلا في العقدين الآخرين من الزمان. "والتعليم"، "والقدرات"، "والمهارات"، "والمعارف" كلها مصطلحات تفضي إلى "الثقافة الوطنية"، "والوعي الوطني" وهي قيم ومفاهيم لا بد من العمل على جعلها سمات للحياة اليومية؟ فهي التي يترتب عليها التقدم والتمدن في شتى نواحي الحياة، وهي أساس السلامة والعصرية في الاقتصاد، والاجتماع، وفي الصحة، والخدمات، والإنتاج، وفي السلوك العام والخاص، وفي القيم الوطنية والأخلاقية و– باختصار– في كل شيء. وأقول إنه ما من أمة أعطت المعرفة قدرها وخاب سعيها في الحياة، وما من أمة أهملت إهمالاً معرفياً وحققت تقدماً حضارياً.

وللتعليم مناهج ووسائل تأتي اللغة منها في الصميم، فما اللغة التي نريدها وسيلة التعليم في

المستقبل؟ الناس جميعاً في عالمنا يعلمون بلغاتهم الوطنية: الأتراك بالتركية، والفرس بالفارسية، والإسبان بالإسبانية، فهل نريد دليلاً أقوى من ذلك على أننا ينبغي أن نعلم بالعربية؟ هذا هو المنطق البسيط، لكن ثمة محاذير ينبغي أن نضعها أمام أعيننا قبل الاطمئنان الكامل لصحة هذا الكلام:

ترتفع بعض الأصوات قائلة إن حالنا ليس كحال هؤلاء، لأن الهوة بين لغة الأُسَر والبيوت لدينا وبين اللغة االعربية هوة سحيقة، وهذا يجعل الأسرة تنقض بالليل ما تغزله المدرسة بالنهار. وعندي شعور دائم بأن هذه "الهوة المخيفة" تُستخدم لتخويف الناس من جدوى التعليم بالعربية، وأنها ليست أعمق كثيراً مما نسمعه من العامية الإنجليزية في شوارع شرقي لندن، وما نسمعه في الإذاعة البريطانية.

وإذا لم نعلِّم بالعربية الصحيحة فماذا يمكن أن يكون البديل؟

هل تكون "العامية" هي البديل فنتحول بذلك من اللغة إلى "اللهجة"؟ أخشى إن فعلنا ذلك أن نكتشف خطأ هذا البديل، ولكن بعد أن نكون قد بذلنا جهدا ومالا ووقتا، واكتشفنا تشرذماً وخراباً معرفياً، يعيدنا إلى وضع أسوأ بكثير مما نعاني منه الآن. والتعليم باللهجة لم يلق قبولاً في وقت من الأوقات، وذاكرتنا في هذا الصدد ينبغي أن تذكر ما نادى به مفتش الري "ويلكوكس، والبريطاني "دنلوب"، وعبد العزيز فهمي – كل في دعوته، وكيف أن العقيدة الوطنية" لم تقبل واحدة من دعاواهم. وإني لأتساءل متعجباً عن نوع المادة التي تدرس بها تلك العامية، أو تكون نصوصها عامة، – لتناسب الوسيلة الغاية – وأين هو تراث الأمة التي يمثل حياتها – ماضيها وحاضرها – ذلك المكتوب بالعامية، والذي يراد له أن يكون أدب الأمة الذي يدرس لأبنائها؟ وغير خاف – من ناحية أخرى – أن فتح الطريق إلى التدريس بالعامية في بلد عربي قد يسهل فتحه في بلاد أخرى؟ فيصبح في الشام بالشامية، وفي العراق بالعراقية، وفي المغرب بالمغربية، فهل هذا ما نريده لأمة تدعي أنها صاحبة تراث واحد عريق من أقدم ما عرفت البشرية؟

وعليه، فلا أرى أمامي سوى العربية مصيراً ومستقبلاً للغة التعليم، ومن ثم للغة الابتكارات العلمية، والإبداع الأدبي، ولغة الدواوين، فتصبح بذلك شارة الهوية، ولسان المجتمع. ويتبع ذلك عندي سؤال هو: ما نوع العربية التي أراها مطلوبة للمستقبل، وممكنة التحقق فيه؟ وأنا أعلم أن هذا السؤال طرح من قبل كثيراً، وأجيب عليه إجابات متفاوتة، لكنني أعتقد أن باب النظر فيه ينبغي أن يظل مفتوحاً. وأسلِّم بأن الهوة الكائنة بين العربية الصحيحة والعامية يعوق ما نراه من الوصول إلى اللغة الجديرة بأن تسود في المستقبل، كما أن استيطان الأمية – كالداء الوبيل – في مجتمعنا معوِّقٌ آخر. وموضوع الأمية، والمتاجرة بمحوها، موضوع محزن، وقد أنفقت فيه أموال، وأهدرت أوقات، وهو بؤرة عفنة يرتع فيها أرباب التخلف، من عُشّاق الروتين، وطلاب الوظائف، ونُهّاب المال العام.

وعندي أن نقطة البداية في الوصول إلى مستقبل لغوي ملائم للوطن تتوقف على التعليم، مناهجه، ووسائله، ولغته. وأقول إن ثورة في التعليم لا بد أن تصحب الثورة التي بدأت في المجتمع لتصحيح مسار الحكم. وأرى أن قوام هذه الثورة التعليمية ينبغي أن يكون في توحيد المناهج (أو شبه توحيدها) في كل أنواع التعليم التي تقدم لأبناء الأمة، والقضاء الفوري على تلك العشوائيات المتمثلة في هذا "المولد الذي غاب صاحبه" من هذا الهجين: المصري/ الأجنبي/ الخاص/ العام/ المجاني/ غير المجاني/ الإنجليزي/ الفرنسي، الذي وصل في رطاناته وغرائبه إلى حد: الأزهري/ الأمريكي.

وأنادي بمؤسسة تعليمية وطنية واحدة، مبنية على فلسفة قومية واضحة تكون لها القوامة على كل أنواع التعليم ومراحله في هذا البلد، وتحشد لها الطاقات اللازمة والإمكانات الوافرة بصفتها من مؤسسات "الأمن القومي ، ومن الطبيعي أن أول ما تلزم به هذه المؤسسات في كل عملها أن تكون اللغة العربية هي لغة التعليم، وأن تنظم اللجوء إلى اللغات الأجنبية وحدود ذلك.

والسؤال الذي ينبغي أن يطرح هنا بالطبع هو: أي نوع – أو أي مستوى – من اللغة

العربية، ذلك الذي يراد له أن يسود في حالة التعليم المصري؟ وأرى أن يكون "العربية الصحيحة المُيَسَّرة" أو – ما يسميه السعيد بدوي في كتابه الفريد "مستويات العربية المعاصرة" – "فصحى العصر". وغني عن القول إن الوصول بفصحى العصر من أن تكون لغة التعليم إلى أن تكون لغة المجتمع" أمر يتطلب عملاً شاقاً، وزمناً طويلاً، وينبغي أن يكون – لذلك – محل اهتمام الجميع.

أساس المسألة – إذن – أن التعليم كله – مادة ومنهجاً ووسيلة أداء– ينبغي أن يكون بالعربية الصحيحة الميسرة (فصحى العصر) التي يجب إثراؤها عن طريق رفدها بمادة متجددة واسعة مستمدة من أساليب المبدعين الكبار: بعض كتابات طه حسين، والعقاد، وأحمد أمين، وتوفيق الحكيم، ويحيي حقي، وسلامة موسى، والمازني، وأحمد زكي، ومحمد حسين هيكل، وغيرهم من أصحاب الأساليب الحديثة الذين صنعوا بكتاباتهم ما يسمى فصحى العصر، ولا بد – بالطبع– أن يكون لأدب نجيب محفوظ مكان واضح في هذا المجال.

وأساس المسألة – كذلك – مما يتبع ذلك، ويتوازى معه – أن تكتب الصحف جميعاً بالعربية الصحيحة الميسرة، وأن تجري على ذلك وسائل الإعلام المرئية والمسموعة، وأن تكون هذه اللغة لغة الوثائق الرسمية في الدواوين، كما تكون لغة الوعظ في بيوت العبادة، وبالجملة تجري عملية "إغراق" للمجتمع في هذه العربية الصحيحة البسيطة، تحاصره من كل مكان، وتوفر له المعرفة كما توفر له التسلية والترفيه، وتعاملاته اليومية والموسمية، وتشعره – باختصار– بأن من مصلحته الخاصة أن يهتم بهذه اللغة، ويكون قادرا على فهمها واستخدامها، سواء أكان في أدنى درجات السلم أم أعلاه.

وأود هنا أن أخص اللغة التراثية – وفي مقدمتها لغة الشعر – بكلمة، وذلك لما يخطر على بال كل مشتغل باللغة من وضع التراث بالنسبة للحاضر، وبخاصة في ضوء ما ينادي به دعاة الحداثة – أو بعضهم – من "القطيعة المعرفية". ونحن نسلم بضرورة وفاء لسان كل قوم بحاجاتهم، كما نسلم – في الوقت ذاته – بأن الحاجات تتغير بتغيير الأزمنة والأمكنة

والأحوال. ولم يختلف دارسو اللغة على أنها "كائن حي" يتطور بتطور الحياة. وعلى ذلك، فنحن حين ننظر في لغة التراث العربي، نتفهم دلالاتها ومراميها، كما نتفهم وفاءها بحاجات المجتمعات التي طوعتها للوفاء بهذه الحاجات، وإذا كان ثمة حواجز تحول بيننا وبين "التماهي" مع الماضي فهي حواجز تعود في أغلبها إلى عامل التطور اللغوي الذي يجعلنا قد نرى غريباً ما لم يكن في عصور سابقة كذلك. وعلى ذلك كله لا أرى جدوى من محاولة العيش بلغة غير لغة العصر، وفرضها عليه بأسباب عاطفيه أو تاريخية، فلن يكون مقبولاً في عصر ما كان مقبولاً في عصر آخر، وعليه فلا بد من التصرف فيما ورثناه من لغة التراث تصرفاً قد يتسع وقد يضيق، وهو تصرف يصدق على المفردات، كما يصدق على العبارات والأساليب، وصولاً إلى تلك اللغة العصرية التي تُحقق مطالبنا الذهنية، والعاطفية، والحياتية.

ولست بهذا أقول جديداً، فقد اشتكى شاعر عراقيّ مرموق عاش من حوالي ستة قرون من الزمان (1276-1349)، من لغة القواميس، ونادي بتبني لغة أخرى عصرية، وهو صفي الدين الحلّي صاحب القصيدة المعروفة "قالت" التي لحنها وغناها محمد عبد الوهاب. يقول صفي الدين الحلي في قصيدته الأخرى، محل الاستشهاد:

إنمــا الحيزبــون والدردبــيس	**والطخــا والنقــاح والعلطبــيس**
والسبــنتــي والحقص والهبق	**والهجرس والطّرقان والعطسوس**
لغــة تــنــفر المسامــع منها	**حيــن تــروى وتشمــئز النفوس**
وقبــيــح أن يــذكر النــافــر	**الوحشــي منهــا ويترك المأنوس**
أيــن قــولي هذا كثيب قــديم	**ومقــالــي عقــنــقــل قــدموس**
لم نجــد شادياً يغــني "قفا نبك"	**علــى العــود إذ تــدار الكؤوس**
لا ولا من شدا "أقيموا بني أمي"	**إذا مــا أديــرت الخــنــدريــس**
أترانــي إذ قلت للحب يا عــلق	**درى أنــه العــزيــز النــفــيس**
أو إذا قــلت للقــيام جــلــوس	**عــلم النــاس ما يكون الجلوس**
درســت تكلــم اللغــات وأمسى	**مذهــب الناس ما يقــول الرئيس**

إنمـــا هـــذه القـــلـــوب حديـــد ولذيـــذ الألفـــاظ مغـــنـــاطـــيس

لقد استحسن الشاعر عبارة "كثيب قديم" ونفر من "عقنقل قدموس" كما استخدم – ببساطة– كلمة "الخندريس" للخمر، وهذا كله يدل على أن التطور اللغوي حاصل، ويدل – كذلك – على أنه نسبي – زماناً ومكاناً – ولا ننسى أن بيننا وبين صفي الدين الحلى ستة قرون من الزمان. ومع هذا كله، يحلو لي القول إنني من أصحاب الدعوة إلى "كثيب قديم" ولا أطيق التقعر الذي قد يصل إلى "عقنقل قدموس" هذا مع أن غيري – من أصحاب السهولة البالغة – قد يرى في لغتي تقعراً، وأنا لا أنكر عليه ذلك، بل أراه طبيعيا إلى أقصى حد. وليس بعيداً ولا غريباً أن نقع في لغة الماضي على ما يتلاءم مع لغة العصر، وفي تلك الحالة ينبغي ألا نتردد في "تطعيم" لغة العصر به، لكن المخيف أن نُغرق لغة التعليم بمادة – أو لغة – تجاوزها العصر، فنجعل المتعلم ينفصل عن حياته لغويا في حين أنه يحياها واقعياً، فهذا الانفصال هو ما نعانيه حاليا، ونشكو منه مرّ الشكوى، وهو علة التخلف، لغويا، واجتماعيا، وحضاريا.

أما قضية الشعر فهي أكبر حتى من ذلك. لقد كان الشعر يوما ما ديوان العرب، وذلك حين كان ممتزجاً بالتثقيف اللغوي العربي إلى درجة كان يزيح فيها النثر جانباً. وهو ذاته متفاوت في معجمه، ونسيجه، وطرائق أدائه، وعلى ذلك يجب أن نتعامل معه بحذر شديد. وعندي أنه لابد من التسليم بأن الشعر الجيد أصبح الآن ينتمي إلى عالم "الخاصة" وأن إحياءه مرهون بالرغبة فيه لا بالقسر عليه. ولنسأل أنفسنا بصراحة: من الذي يمكن أن يستوعب الآن –في جو دراسي أو ثقافي غاب عنه مبدأ الرغبة الخالصة في التمتع بالدرس – امرأ القيس، والنابغة، وزهيراً، والأعشى؟ هنا ينبغي أن يعيد القارئ قصيدة صفي الدين الحلى السالفة الذكر، ويتأمل مقاصدها. ولا يخرج الشعر الحديث – في جملته – عن الشعر القديم في هذا المجال؟ فأين هم هؤلاء الذين يقبلون على البارودي وشوقي وحافظ إبراهيم؟

لقد لاحظت – عن قرب – حالة الشعر سنة بعد سنة، وأنا أحاول جاهداً تقريبه للمتعلمين، فخاب أملي (فيهم لا في الشعر) ووجدت أن هذا الفن الجميل ينحسر باطراد عن اهتمامات

الناس، ويتغير إحساسهم به إلى درجة تجعله محصوراً في زاوية ضعيفة جداً.

وفي يقيني أنه إذا بقي الحال على ما هو عليه فسيفقد الشعر عند الناس أهم عنصر يكون به شعراً، وهو عنصر الموسيقا، ولا يبقى منه سوى النثر الشعري، أو النظم غير الشعري. ولن يكون له – لذلك– دور كبير في تشكيل لغة المستقبل. أقول هذا والألم يملأ نفسي، بعد أن تفانيت في حب هذا الفن الجميل الأصيل، وذلك في قراءته وتدريسه سنين طويلة من حياتي.

لابد أن يمتلئ العقل المصري، والوجدان المصري، باللغة العربية الصحيحة الميسرة (فصحى العصر) جيلاً بعد جيل، تلك اللغة التي تستمد نماذجها من إبداع أبناء الأمة، وتحاصر آذان الناس صباحاً ومساءً، واصلة إليها من قاعات الدرس، ومن وسائل الإعلام المقروءة، والمرئية، والمسموعة، ومن منابر دور العبادة، وساحات النشاطات الرياضية، وذلك حتى تصل إلى الأسواق، ومجالس السمر في البيوت وغيرها. ويساعد على الوصول إلى هذا الهدف البعيد، الممكن، العزيز، أن نعمل بحِسٍّ ثوري إصلاحي، لا بحس تلقيني إملائي، وأن نكف عن التغني الفارغ باللغة التي عَفَّى عليها الزمن، التي نعلم – قبل غيرنا– أن التمكين لها مستحيل، وليس مطلوباً، وأن نقبل على التمكين للغة العصر بقلب جريء يمكنها من إزاحة "فصحى التراث" واللهجة جانباً، فتوحد هذه اللغة السائدة بين طبقات الأمة، وتضيق الفروق بين اللغة واللهجة، وبين المتعلمين والأميين.

وبوسعنا – إذا أردنا – أن نجعل يوم سيادة "فصحى العصر" يوماً قريباً، وأن نجعل من أهدافنا جعلها واقعاً ماثلاً، وعقيدة اجتماعية، وعقداً وطنياً راسخاً، وإرادة سياسية حاكمة من شأنها أن تلزم كل مسؤول. وإذا كانت ثورة يناير قد نجحت بمساعدة تكنولوجيا العصر، فقد وجب أن نربط ربطًا متيناً بين "فصحى العصر" و"تكنولوجيا العصر"، وذلك عن طريق استحداث برامج فاعلة بهذه اللغة على شبكة المعلومات، والعمل على توسيع رقعة البث بهذه اللغة على هذه الشبكة. والوضع المأساوي الناشئ من فقرنا المدقع في تلك الناحية حالياً، لا يقل عن الوضع الناشئ من تفشي الأمية الأبجدية. ويعلم مستخدمو تلك الشبكة أن لغتها الغالبة

هي الإنجليزية، وأن العربية فيها تتوارى مهزومة، وإن ظهرت ففي ثوب عامي، أو هزلي ركيك، لا يختلف كثيراً عن العامي.

لا بديل إذن – في الناحية الموازية– عن القيام بنهضة تعليمية في عالم الحاسوب وبرامجه، أساسها استخدام "فصحى العصر" وجعلها تجذب إليها مزيدا من المستخدمين الذين يجدون فيها غاياتهم المعرفية، وينتقلون – طائعين مختارين– من استخدام الحرف الأجنبي إلى استخدام "الصحيحة الميسرة، والكف نهائياً عن استخدام العامية التي هي سائدة في هذا المجال الآن.

وصحيح أن الإنجليزية تتمدد في فراغ الحاسوب كالأخطبوط، وهذا يجعل من منافستها أمراً صعباً، لكنني أقول إن باب المنافسة مفتوح، وبوسع أجيال المستقبل أن تحقق فيه نتائج باهرة، وذلك بالعمل الدائب على "إغراق السوق" ببرامج عربية – لغتها الفصحى الصحيحة الميسرة مبنىً ومعنىً – تكون في متناول كل طالب معرفة، وتعرض أمامه مادة واسعة عميقة في شتى المعارف، تملأ وجدانه وعقله، ولا تجعله محتاجاً إلى التحول عنها إلى غيرها. ذلك هو طريق بناء الهوية اللغوية، خطوة خطوة، وسمة سمة، وعنصراً عنصراً، وذلك حتى تكتمل أصيلة، منفتحة على العالم، واثقة بذاتها، تحمل في تكوينها عناصر محلية وقومية وعالمية، تعرف قدر نفسها وقدر الغير، ولا ترى غضاضة أبدا في أن تستفيد من كل مفيد، متعالية على الاحساس بالنقص، وعلى عجرفة الاستعلاء على الآخرين. وبذلك تعود سيرتها الأولى؛ حين كانت اللغة رمز سيادة أهلها، بصفتها لسانهم المعبر عن حاجتهم المادية، والروحية، والعقلية، والاجتماعية، وحين كانت مستجيبة للتطور والتلاقح مع غيرها من لغات العالم المحيط بها، فأخذت وأعطت، واخترعت وقبلت المخترعات، فجددت بذلك معجمها، وأساليبها على نحو طبيعي، كما تجدد الشجرة لحاءها اليابس بلحاء شاب غض جديد، يأتي من داخلها عن طريق التفاعل الحيوي، ولا يجلب لها من الخارج.

"فصحى العصر" هي عندي – إذن– لغة المستقبل التي تليق بأمتنا الثائرة.

لكن هذا التحقيق مشروط – بالطبع– بنواميسه الطبيعية، من العمل الجاد المستمر الذي لا يتهاون مطلقاً في "الفروض" ولا يضع مطلقاً "النوافل" قبل "الفروض". ومن شأن هذه اللغة إذا غلبت على الاستعمال، وسالت على ألسنة أهلها، وأقلام كتابها، أن تصبح شارة الثقافة والحضارة، وتتحول إلى معين هائل ترتوي منه الأمة دون أن ينفد، وستهتدي – عندئذ– إلى نوع نثرها الأدبي الملائم، ونثرها العلمي الملائم، كما تهتدي إلى شعرها الملائم، وطرائق حياتها. وقد تهتدي إلى روافد تختارها بحريتها من ماضيها البعيد أو القريب، وتنظيم "علاقتها الخارجية" بثقافات العالم، محققة المرونة اللازمة لاكتساب طبيعة وسط بين الجمود والتسيب، واقفة على قدم المساواة مع لغات العالم الحية التي تتباهى بإنجازاتها على الرغم من جذورها القريبة، وتراثها الروحي المحدود.

ومن الأمور التي لا تحتاج إلى شرح أن الحرية شيء والانفلات شي آخر، وأن كل نظام في الدنيا يحتاج إلى قوانين حاكمة. ومعنى هذا أن الفوضى اللغوية التي تسود التعليم، والإعلام، والمسرح، وواجهات المتاجر، وملصقات الشوارع، والخطاب الديني والسياسي، وغير ذلك من نواحي الحياة لدينا، لا بد أن تنظم، وذلك بقوة القانون لا بالمواعظ الفارغة، والأماني المتخاذلة. ولن يحدث ذلك إلا إذا تولّى الأمر – في هذه الناحية – الأكْفاء من أبناء الأمة، القادرون على العمل، المنزهون عن الغرض، وتنحَّى أصحاب المواهب الضعيفة، وقُضي على "الشللية" و"المحسوبية" في عالم الفكر والثقافة، ونظمت الحياة الأكاديمية، والعلمية، والأدبية؛ فقد كادت البلد تتحوّل – إلى عهد قريب – إلى مجموعة من الأسر والأصدقاء التي تتوارث العمل في كل نواحي الإنتاج، فهوى ذلك بمستوى الأداء كله إلى الحضيض، وبخاصة بعد أن وصلت شهوة "التوريث" إلى مناطق حساسة جداً في جسم الأمة كمهنة الطب، والهندسة، والنيابة والقضاء، والدبلوماسية، وبقية القائمة. ولا يظنَّنَّ ظانّ أن ذلك الاعوجاج بمعزل عن الاعوجاج اللغوي؛ فإنه – عند التأمل – من أسبابه، ومن نتائجه.

إن العقيدة اللغوية "محتاجة إلى "إرادة لغوية" تفّعلها، كما أن "الإرادة اللغوية" محتاجة إلى قواعد ضابطة تحكمها. وأما النفاق الاجتماعي الذي يصدعنا ليل نهار بالحديث عن اللغة

العربية بصفتها لغة الهوية والدين ووعاء الثقافة... إلخ، ثم يمضي واقعاً وعملاً في البعد عنها، فهو التخريب بعينه. ويأتي على رأس كل ذلك النفاق السياسي؛ ذلك الذي يزعم أن الكلمة الأخيرة في كل شيء هي للشعب، وهو يعلم أن السواد الأعظم من هذا الشعب أمّي بالمعنى الهجائي والتكنولوجي، فهو نفاق قصد به التمكين للفساد؛ إذ كيف يقضي الأميّ في شأن المتعلم؟ وهل وصلت الأمة إلى الحد الذي تنفق من لحمها الحي على التعليم، ثم تدفع بالمتعلمين والمثقفين إلى ركن ضيق، وتجعل السواد الأعظم هم الذين يشرعون، ويتربعون في المجالس لسن القوانين؟ وكيف يصح في الذهن أن يشرع هؤلاء في شؤون اللغة، وهل فاقد الشيء يعطيه؟

ذلك هو الهرم المقلوب في الحياة، وهذا هو التناقض العميق في حركتها، وما لم تصل الثورة إلى تصحيح هذا وذاك فسيظل طريق التقدم أمامنا طويلاً.

أخلص من كل ما قدمته إلى القول بأن مستقبل اللغة العربية في وطني –كما أراه– صائر إلى "فصحى العصر" وهي العربية الصحيحة الميسرة، وهي ضرورة تشير إليها قرائن الماضي والحاضر، ولكنها ضرورة احتمالية، وليست حتمية تاريخية بحال من الأحوال، وذلك لأنها مرهونة بشروطها الطبيعية من إرادة أبنائها وعزيمتهم السياسية، والاجتماعية، والمعرفية، إن عملوا عليها تحققت، وإن لم يعملوا عليها بقي الحال على ما هو عليه من اضطراب في اللغة وفوضي في ملامحها، بل إنه قد يتردى في المستقبل إلى ما هو أسوأ حتى من ذلك، فنواجه مصيرا لا يمكن التنبؤ به مهما وضعنا له الفروض.